أديبات:

أرسلت «باحثات» إلى عدد من الأديبات اللبنانيات السؤال التالي: «لمن تكتبين»؟ وهنا الإجابات:

نازك سابا يارد

قد يظنّ القارىء أن من الادعاء الفارغ قولي إني أكتب لنفسي، بالدرجة الأولى. لكن هذا صحيح. فأنا أعشق الكتب والقراءة منذ صغري، ومنذ أن بدأت أعي قيمة الكلمة كنت أحلم بأن أصبح كاتبة. إنني أحبّ مهنتي، التعليم، وأحبّ طلابي كثيراً، وقد وجدت في تجاوب العديد منهم تلك المكافأة المعنويّة التي يذهب العديدون إلى أن الأستاذ محروم منها. إلا أنني، على الرغم من ذلك، لا أشعر بأنني أحقّق ذاتي كاملاً وأرضي نفسي تماماً إلا بالكتابة. فالكتابة بالنسبة لي حاجة حيويّة كالأكل والشرب والنوم، ولا أستطيع أن أتصوّر حياتي بدونها. ذلك أن الكتابة وحدها تسمح لي بأن أفكّر جدياً في القضايا التي تشغلني وبأن أتناولها من مختلف وجوهها. كذلك تساعدني الكتابة في محاولتي أن أفهم «الآخر». حين أحلل شعر شاعر أو فكر مفكّر، أو أرسم شخصيات رواية، اضطرّ إلى سبر أغوار نفسيات مختلفة، ونفسيات ليست «أنا»، فأحسّ أن الكتابة تغنيني إذ تجبرني على تصوّر ما قد يدور في أعماق الاخرين، على محاولة استجلاء الدوافع إلى تصرفاتهم، على فهمهم. ثم إن الكتابة تدفعني إلى التعمّق في اللغة، لغتي، حين أفتّش في ألفاظها وصيغها ومجازاتها عن أفضل وسائل التعبير والتأثير. لهذا كلّه تكون الكتابة، بالنسبة لي، وسيلة تحسّن ونموّ. ويوم أنشغل عن الكتابة بضعة أيام متتالية أحسّ بقلق مزعج، بل بأكثر من قلق، بصوت داخلي ينخرني، يؤنّبني، ينخزني حتى أعود إلى قلمي وأوراقي. لذلك، ضحّيت بتفرّغي في الجامعة حين أصبحت عاجزة عن التوفيق بين مهنتي وتكريس الوقت الكافي للكتابة.

لكن من السخف أن أدّعي أنني أكتب فقط لنفسي، وإلا لما سعيت إلى نشر كل ما أكتب، ولما غمرتني سعادة عميقة حين يقول لي أحد الناس إنه قرأ لي، سواء أبدى إعجابه بما قرأ أم لم يُبْدِ. وهنا عليّ أن أوضّح أنني أتوجّه إلى قرّاء من فئات مختلفة.

بما أن الأدب العربي اختصاصي، اخترته بدافع حبّي للغتي وآدابها، كان من الطبيعي أن

أحاول إشراك الآخرين في هذا الحب، ليتذوّقوا جمال أدبنا ويقدّروا فرديّته. فلهؤلاء كتبت بعض مؤلفاتي.

في تراثنا الأدبي المنشور نقص كبير. ففي مكتبات العالم ومتاحفه الاف المخطوطات العربيّة التي لم تُحقّق وتُطبع بعد؛ وفي مصادرنا القديمة شعر شعراء لم يُحقّق ويُجمع في ديوان؛ وفي فهارسنا القديمة ذكر لأدباء لم تصلنا إلا أسماؤهم ولا نعرف ما إذا سلمت لهم مؤلفات لم نعثر عليها بعد. فللحريصين على تراثنا، ولمن يهمّه إلقاء الضوء على بعض المجهول فيه والتعرّف إليه، عدت إلى مصادر أدبنا القديم أجمع منها شعر شعراء عبّاسيين كانوا مشهورين في عصرهم، ومكثرين، إلا أن شعرهم لم يُجمع في ديوان، وقد ضاع معظمه. من هذا القبيل جمع لشعر حمّاد عجرد وعمرو بن كلثوم العتّابي وأبان بن عبدالحميد اللاحقي ووالبة بن الحباب، أستاذ أبي نواس. وبما أن الجمع وحده لا يمنح القارىء فكرة دقيقة عن شعرهم، حقّقته وضبطته وشرحته ونقدته، ممهّدة لكل دراسة بسيرة الشاعر وما وصلنا من أخباره. ليس لشعرهم قيمة شعر معاصرهم الكبير أبي نواس، ولكنه جزء من تراثنا، وكل من يهمّه التراث حريص على معرفة ما فيه من سمين وغثّ على السواء.

ثم إن بين عشّاق الأدب من يهمّه فنّ أدبيّ أو غرض شعريّ دون غيره، ولذلك نجد كتباً غربيّة جمعت فقط «بالاد» ووردزوورث وكوليردج، أو كتباً عربية جمعت «كل ما قاله العرب في العين»، مثلاً. فلمن يحبّ أن يضحك جمعت «كل ما قاله ابن الرومي في الهجاء». ولكي يفهم القارىء شعراً كُتب قبل ما يزيد على ألف سنة، ضبطته وشرحته ووضعت له دراسة تمهيديّة تبرز فكاهة ابن الرومي وبراعته في التصوير والسخرية والمسخ.

وبما أن مهنتي هي التدريس، كتبت أيضاً لطلاب الأدب في صفوف البكالوريا والجامعات. لهم كتبت مقدمات نقدية لكل من مؤلفات جبران خليل جبران العربيّة والمعرّبة. ولكي يفهم الطالب ما في أدب جبران من أبعاد، بيّنت المؤثّرات الفنية والفلسفية في مقالاته وقصصه، إلى جانب المؤثرات السياسية والاجتماعية، كما لفت النظر إلى مميزات الأسلوب الجبراني الشهير. ولهؤلاء الطلاب كتبت أيضاً كتباً عن كل من أحمد شوقي وابن الرومي وإلياس أبو شبكة، معرّفة ببيئاتهم وسيرهم وشخصياتهم كما تجلّت في شعرهم وفي ما أوردت عنهم المصادر من أخبار. وركّزت بعد ذلك على تحليل شعرهم ونقده. وبما أنني أكتب لطلاب توخّيت أن يكون نقدي واضحاً، بسيطاً وموضوعياً مرفقاً بالشواهد التي تبيّن ما ذهبت إليه. فقد كان لي هنا هدف مزدوج: أن أساعد الطالب على استجلاء مكامن الجمال في هذا الأدب لمعرفة سرّ خلوده؛ وأن أعلّمه أن يتناول الأدب بعين ناقد موضوعي مدقّق، يثبت بالبرهان ما فيه من روعة أو ما فيه من نقص، فلا يأخذ بآراء مسبقة أو أحكام سطحية لا تعني شيئاً أو قد تعني أي شيء.

وإلى فئة خاصة من نوع آخر يتوجه كتابي «الرحالون العرب وحضارة الغرب»، إنه كتاب

يخاطب كل من يعنيه الصراع الفكري والحضاري بيننا وبين الغرب، ولم أتعرّض للصراع السياسي إلا كخلفية كان لا بدّ أن تؤثر في موقف الرحّالين من الحضارة الغربية. صحيح أنني تناولت مظاهر الصراع الفكري والحضاري في مؤلفات رحّالين من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، لكن الصراع لا يزال هو هو في يومنا هذا، بل أشدّ، وهو لا يزال اليوم، كما كان سابقاً، متأثراً بالعلاقات السياسية بيننا وبين الغرب. ولو لم يجد فيه قرّاء مثقفون صدى للقضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية التي تشغلهم، لما نال هذا الكتاب ما نال من نجاح، ولما أتتني من بعض هؤلاء المثقفين رسائل إعجاب وشكر. تشغلهم وتشغلني، كما شغلت الرحالين الذين تناولتهم، أسئلة جوهرية: كيف توصّل الغرب إلى تفوّقه السياسي والاقتصادي والعلمي والفكري؟ ما أسباب تخلّفنا نحن؟ وكيف نستطيع نحن أن نلحق بركب حضارة ليست من صنعنا مع المحافظة على تراث من صنعنا يضمن أصالتنا وهويّتنا المميّزة؟ أسئلة تشغل اليوم المفكرين الأصوليين في العالم العربي بقدر ما تشغل المفكرين الليبراليين والعلمانيين، وأظن أن كلاً منهم يجد في هذا الكتاب بعض ما يتجاوب مع ارائه.

ثم إن لي روايات. فلمن أكتبها؟ أكتبها للقارىء العادي، لصديقة أتخيّلها قبالتي، لصديق أتصوّره يستمع إليّ. فنحن جميعاً أبناء مجتمع له مشكلاته وهمومه، وورواياتي تتناول قضايا هذا المجتمع، وتصوّرها تصويراً واقعياً إلى حدّ جعل العديد من القرّاء، وفيهم بعض النقاد والأدباء أنفسهم، يسألونني ما إذا كنت أروي قصّة حصلت فعلاً، أو حتى سيرة حياتي. فكوني أعالج هموم مجتمعي التي تشغلني لا يعني على الإطلاق أنها همومي أنا شخصياً. إن كل كاتب قصة يغرف من واقع معيش، لكنه ليس بالضرورة معيشه هو، كما أن الروائي ليس مجرّد مسجّل آلي لهذا الواقع.

لكن بين القرّاء العاديين فئات خاصة تتوجّه إليها، دون غيرها، رواية معيّنة، عن قصد أو عن غير قصد. فمن ردّ فعل القرّاء على روايتي «نقطة الدائرة» اتضح لي أنني كتبتها للشابات والشبان اللبنانيين، لأنها تناولت مشكلة يواجهونها هم. فأمام بطلة الرواية خيار صعب: إما أن تبقى في بيروت حيث تعمل كصحفية ناجحة، أو أن تتزوّج الرجل الذي تحب وتتبعه إلى السعودية حيث تكون سجينة بيتها وتعيش حياة محدودة فارغة. وحين يرفض خطيبها العودة إلى بيروت والاستغناء عن الأموال الطائلة التي يربحها في السعودية، ترفض هي الاستغناء عن مهنتها وتتركه. أثارت هذه الرواية نقداً عنيفاً من قبل الرجال وبعض النساء الذين أساءوا فهمها. ظنّوا أني ضد الزواج، ولم يدركوا أنني أردت فقط أن أظهر أمرين: من جهة، عقلية الرجل الذي يرفض التضحية بأموال فائضة عن حاجته، فيما يريد أن تضحي المرأة بما يسعدها ويملأ حياتها؛ وأن أؤكد، من جهة أخرى، ان الفتاة المتعلّمة الحديثة لا يملأ الزواج وحده حياتها، كما أنه، وحده، لا يملأ حياة الرجل. فكل الشابات اللواتي قرأن الرواية قلن لي إنها خاطبتهن إذ تناولت

مشكلتهن تماماً، وإنهن يجدن أنفسهن أمام الخيار نفسه، خاصة بعد أن دفعت الحرب معظم الشباب إلى العمل في البلاد العربية.

أما رواياتي الأخرى فكتبتها لكل اللبنانيين وغير اللبنانيين، ولا سيما أولئك الذين عاشوا حرباً كحربنا. القصف والخوف وشلل الحياة فرّق العديد من الاباء عن زوجاتهم وأولادهم. فأظهرت لهم قصة «الصدى المخنوق» الفرق بين الأسر التي بقيت متماسكة لأن أفرادها ظلوا معاً، ولو في الملاجىء وتحت القصف، والأسر التي تفككت لأن حياة الزوج وهمومه اختلفت كل الاختلاف عن حياة زوجته وهمومها. وطبعاً، كان الأولاد الضحية. ولضحايا أحداث أكثر مأساوية كتبت «كان الأمس غداً». فمن خلال هذه الرواية الرمزية حاولت أن أبيّن للبنانيين أنهم مسؤولون، إلى حد بعيد، عما آلت إليه بلادهم: فالاستهتار، وإلقاء اللوم على الاخرين، وعدم وعي الفرد واجباته ومسؤوليته، وقصر النظر، والمماطلة في حل المشكلات إلى أن يفوت الأوان، هذه وغيرها تصوّرها أحداث الرواية لتبيّن لكل اللبنانيين كيف أفضت إلى اقتتال أخوين وقتل أناس أبرياء، بعد أن أحرقا الفندق الذي كانوا يصطافون فيه. ولكن هنا أيضاً يبدو أنني، من غير أن أشعر، كتبتها لغير اللبنانيين من العرب. فمثلاً، أكّد الفلسطينيون الذين قرأوها أنهم وجدوا فيها صورة لمأساتهم.

ومن أسباب حربنا، وحروب غيرنا كما يتضح الان، وجود فئات طائفية أو اثنية أو سياسية مختلفة في بلد واحد. وكثيراً ما ترى كل فئة أنها هي، دون غيرها، على حق، فتعادي الآخر وترفض قبول اختلافه. وفي لبنان، كما في غيره، أكثرية وأقليات. فلهذه الفئات المتصارعة، وللأكثريات والأقليات بينها، كتبت «تقاسيم على وتر ضائع». بطلتها سعدى تنطق بلسان الأقلية لتلفت نظر الأكثرية إلى ما لا تشعر به هذه الأكثرية ولا تعانيه. فسعدى مسيحية لبنانية من أصل فلسطيني، ذات إحساس قومي عربي علماني خالص، يُشعرها بالانتماء الكامل إلى أي بلد عربيّ تحلّ فيه. لكنها، على الرغم من ذلك، تشعر بالغربة بين لبنانيين يُزعجهم أصلها الفلسطيني، بين فلسطينيين يُغضبهم انتقادها تجاوزاتهم، بين مسيحيين لا يرتاحون للعروبة، وبين مسلمين لا يفرّقون بين العروبة والإسلام. تقول سعدى: «ترفضني كل فئة لأن كل فئة لا تقبل الولاء لغيرها، لا تعترف بإمكانية ولاء يرفض الصراع مع قبوله الاختلاف».

وعليه تبيّن اثر الصراع الأيديولوجي أو السياسي في اللغة: للوطنية مدلول قومي بالنسبة لي، مدلول ديني بالنسبة لغيري. الخيانة، لي، تعني خيانة الوطن، القوم. لغيري، خيانة الرئيس، الزعيم ولو كان من وطن آخر، من قوم آخر. القومية لي، في حضارتي، لغتي، تراثي. وغيري؟ قد يضحك مني ومن لغتي وحضارتي وتراثي. أنا، أنتم، هم... مَن منّا على حق؟ وأتذكّر قول جبران في «عواصفه»: و«بين أوارق الوردة وأشواكها تنام الحقيقة نوماً عميقاً أبدياً». وكأني بسعدى تطلب من كل فئة أن لا تعتبر أنها وحدها، صاحبة الحقيقة المطلقة.

ولأنني أكتب رواياتي لكل الناس، بصرف النظر عن مستواهم العلمي أو الثقافي، استعمل لغة سهلة جداً. وأحاول، قبل كل شيء، أن أجعلها مشوّقة كي تشدّ إليها القارىء. فحين أكتب أفكّر دائماً في وسائل التشويق المختلفة التي يمكنني استخدامها. لا أطيل الأوصاف، مثلاً، كأوصاف الطبيعة التي قد تُمتع متذوّق الأدب، إلا أنها تضجر القارىء العادي. ولذلك أيضاً لا أطيل الحوار الذي.يتناول موضوعات فكرية لن تهمّ إلا قرّاء معيّنين. لكن هذا لا يعني أنني لا أعتني ببناء الرواية الفني. فكثيراً ما استخدم التذكّر وتوارد الخواطر وتيار الوعي أو غيرها من أساليب الرواية الحديثة لأسهم مع غيري من الروائيين العرب في جعل القارىء العربي يتعوّد على أنماط جديدة من كتابة القصة، فيحاول أن يفهم الأسباب التي جعلت الكاتب يستخدم هذه الأساليب، والأبعاد التي اكتسبتها الرواية بفضلها.

لكنني، في نهاية المطاف، أعود لأطرح على نفسي السؤال: لمن أكتب؟ إن بعض البلاد العربية تحول ضائقتها الاقتصادية دون استيرادها كتباً بأعداد كبيرة؛ وبعض البلاد مكتفٍ بكتّابه، لا يهمه، إجمالاً، أن يقرأ لغيرهم؛ وكثرة القيود التي تفرضها الرقابة في بعض البلاد العربية تمنع دخول كتب عديدة. وفي كل الأحوال، فإن معظم العرب لا يقرأون. فبشيء من الأسى أنهي كلمتي بما بدأتها: أنني أكتب، بالدرجة الأولى، لنفسي.